مجلة الجمعية الجغرافية الليبية

مجلة علمية متخصصة تصدر عن الجمعية الجغرافية الليبية



العدد الخامس

2016

مجلـــة

الجمعية الجغرافية الليبية

العدد الخامس . 2016م

مجلة الجمعية الجغرافية الليبية

البحوث والمقالات الواردة في هذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي مجلة الجمعية الجغرافية الليبية

تتم المراسلات والمشاركات على العناوين التالية:

- مكتب الجمعية الجغرافية الليبية بمدينة الزاوية .
- إدارة فرع الجمعية بالمنطقة الغربية، طرابلس.
- إدارة فرع الجمعية بالمنطقة الجنوبية، سبها.
- إدارة فرع الجمعية بالمنطقة الوسطى، سرت
- إدارة فرع الجمعية بالمنطقة الشرقية، بنغازي

الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب

دار الكتب الوطنية

بنغازي ـ ليبيا

هاتف : 9097074 - 9096379 - 9090509

بريد مصور : 9097073

البريد الإلكتروني :

nat_lib_libya@hotmial.com

رقم الإيداع : / 2009

ردمك - – ISBN 978 – 9959 – 852

التنفيذ الفني / أكرم محمود جودة

تصميم الغلاف / إياد أحمد جودة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يسَّر الله سبحانه وتعالى لبلادنا أن تتغلب على القوة الغاشمة التي كانت تشدها إلى الوراء وتعرقل مسيرة التطور فيها، وقد دفع الشعب الليبي في سبيل ذلك ثمناً غالياً من الدماء والأشلاء والأرواح الزكية ومن الدمار والخراب لكل مناحي الحياة، ولكن كل ذلك لا يثنينا عن مواصلة التقدم والدفع بعجلة التطور إلى الأمام. لقد أثبت الشعب الليبي دائماً أنه شعب حي قادر على مواصلة بناء الحياة من جديد بعد كل نكسة وفي أعقاب كل كبوة.

كابدت بلادنا الدمار والمعتقلات والموت في مكافحة الاستعمار الإيطالي، ثم جعلنا ذلك الاستعمار نعاني ويلات حربين عالميتين لا ناقة لنا فيهما ولا جمل. وتحرر الشعب الليبي من ربقة الاستعمار وخرج من تحت ركام حربين عالميتين يبني البلاد بجهد جبار وعزم لا يلين، ولكن القدر رماه بانقلاب عسكري أفضى إلى حكم دكتاتوري ظالم مستهتر هدم ما بناه الشعب وأتى على الأخضر واليابس، وانتفض الشعب الليبي من جديد باذلاً النفس والنفيس ليقذف بذلك الحكم المتسلط إلى مزبلة التاريخ، وما زال يعاني اليوم من مخلفات ذلك الحكم الغاشم وسلبياته، وينظر إلينا الناس اليوم بين شامت فرح بما نعاني وبين مشفق يرنوا إلينا بنظرة متعاطفة وقلب واجف يرجو لنا النجاة من الأحداث التي تحاول أن تدفع بنا إلى مصير مجهول. ولكن بوارق الأمل تلوح بين الفينة والفينة نابعة من عواطف وتصرفات الوطنيين من الليبيين ذوي المعدن النقي والإيمان القوي والعزم الأبي، ستبعث فينا تلك الومضات روح الأمل بالمستقبل والثقة بالنفس والتضحية في سبيل الوطن وعزة المواطن. لذلك نقف اليوم واثقين بأننا سنتمكن من بناء وطننا والدفع به

إلى التألق والأمان والعزة، وستتوالى أجيال من أبناء هذا الوطن تصحح ما فسد وتسترجع ما سلب وتبني ما تهدم.

تنظر الجمعية الجغرافية الليبية لجميع فروعها ومنتسبيها إلى المستقبل بثقة وأمل، وسنكون مستعدين لمد أيدنا متكاتفين مع أبناء هذا الوطن المخلصين لنسهم معا في بناء المستقبل المشرق، مؤتمراتنا العلمية الجغرافية تتواصل، وإنتاجنا العلمي يزداد عمقاً وانتشاراً، وها نحن نضع بين يدي القارئ الكريم العدد الخامس من هذه المجلة، وهو الإصدار الثاني بعد انبلاج ثورة 17 فبراير، وقد عقدنا العزم على مواصلة مسيرة هذه المجلة لتسهم بفاعلية في نشر العلم والثقافة، ولتتيح مجالاً آمناً للجغرافيين الليبيين لنشر إنتاجهم العلمي دون قيود، نعمل من أجل تحقيق حرية البحث والدراسة والإبداع في مجال علم الجغرافيا، وسنسعى دائماً إلى الأفضل، والله من وراء القصد.

جُهّز هذا العدد ليصدر خلال عام 2013 ميلادية، ولكن الظروف الصعبة والأحداث المؤلمة التي تمر بها ليبيا بصفة عامة وبنغازي بصفة خاصة، حالت دون إصداره في موعده.. نرجو من القارئ الكريم ومن السادة الذين أسهموا بالكتابة في هذا العدد أن يتقبلوا خالص اعتذارنا على هذا التأخير الخارج عن إرادتنا، ونبتهل إلى العلي القدير أن ينقذ بلادنا الحبيبة من كل مكروه، وأن يقيها شر الفتن وعبث العابثين، ويسبغ على ليبيا الأمن والأمان والاستقرار ويحفظها ويصونها ويبقيها حرة أبية.

أ. د. منصور محمد الكيخيا
رئيس الجمعية الجغرافية الليبية

الافتتاحية

هذا هو الاصدار الخامس من مجلة الجمعية الجغرافية الليبية يرى النور ويصل إلى أيدي القراء ـــ خاصة الجغرافيين منهم ـــ وهو يحوي عناوين متنوعة من شتى العلوم الجغرافية لدراسات كتبت بأقلام إخوة لهم مقدرة وكفاءة فيما كتبوا عنه.

ونحن نعتبر هذا العدد محاولة جادة لرسم طريق المستقبل، فدائرة تعاون الجغرافيين الليبيين مع هيئة تحرير هذه المجلة بدأت تتسع، واسهاماتهم بدأت تتنوع وباتت واقعاً يدركه الجميع، مما يدفع بي إلى الشد على الأيدي آملاً بذل المزيد من التعاون مع هيئة التحرير حتى نسهم جميعاً في حث الخطى للدفع قدماً بهذه المطبوعة الثقافية العلمية لبلوغ بر الأمان ومواصلة السير بثبات في سبيل التطور والنجاح، ونحن نختزن استعداداً يوفر لهذا الوطن انجاز كامل أمانيه، ودمتم بخير.

أ.د. الهادي مصطفى بولقمة

رئيس التحرير

محتويات العدد

ايكولوجية نباتات الصحراء[1]

تأليف: فريتس و. وينت

ترجمة: د. جبريل امطول علي

قسم الجغرافيا، جامعة بنغازي (بنغازي)

هناك جدل كبير حول قوانين السلوك الانسانى ويرجع ذلك فى معظمه الى عدم وجود طرق تجريبية واضحة لفهم هذه القوانين. بينما يمكن دراسة سلوك الحيوان والنبات فى الطبيعة وفى المختبر، وسوف يساعد علم ايكولوجيا هذه الكائنات على فهم طبيعة العلاقات الانسانية، ذلك ان القوانين الاساسية التى تحكم علاقات التبادل بين الكائنات الحية بصفة عامة يجب ان تشكل ايضا أساس السلوك البشرى. تتسم الدراسة الايكولوجية بالتعقيد الشديد ، ولكن من خلال فحص الحياة النباتية فى الصحراء – وهى حالة اقل تعقيداً نسبياً – يمكن استخلاص بعض التعميمات حول السلوك.

تمثل الصحارى اراضيَ مثاليةً لاجراء البحوث، فهى عادة لم تتأثر بالتدخل البشرى ، كما ان ضآلة حياتها النباتية تسهل كثيراً دراستها بشكل تفصيلى، كما يظهر فى الصحارى وبشكل واضح اثر العوامل الفيزيائية التى تعمل فى هذه البيئة. والأهمُّ من كل ذلك الطبيعة القاسية للمناخ، فالرياح تكتسح سطحها دون عائق، ودرجات حرارتها وكمية ما يسقط بها من امطار تتأرجح

1- Went W. Frits (1976) The Ecology of Desert Plants. In Gibor A. (ed) Conditions for Life . Reading from Scientific American , Freeman, San Francisco, 46-50.

بين معدلات متطرفة. قد يصل التباين فى كمية ما يسقط من امطار الى خمسة اضعاف بين سنة واخرى، والعواصف المطرية من القلة بحيث يمكن قيـــاس اثر كل مطر على حدة . ويمكن إعادة انتاج جميع هــذه الظــروف الــشديدة التباين للبيئة الصحراوية فى المختبر لتسهيل دراسة كيف تنبت النباتات وكيف يتطور نموها. يضاف الى ما تقدم ان اغراء الصحراء لعالم النبات لــيس لـــه حدود ، فهى تتحول الى مكان مبهج خلال فصل الربيع .

يعتبر وادى الموت اكثر الصحارى تطرفا فى الولايات المتحدة، فهـــو يحجب عن اقرب مصدر لبخار الماء، وهو المحيط الهادى، بواسطة مرتفعات سييرا نيفادا الشاهقة، يبلغ المتوسط السنوى لامطار قاع الوادى (34.3 مـــم) فقط. اما المياه السطحية تكاد تغيب بالكامل باستثناء ما توفره بعض اليـنـــابيع من مياه شحيحة تغذى الجريان السطحى المحدود التى يكون مصدرها الامطار القليلة التى تسقط على المرتفعات الجافة المحيطة بها. ونظرا لان وادى الموت ينخفض تحت مستوى سطح البحر فليس له تصريف، فهو عبارة عن حـــوض يتجمع به ما تنقله الخوانق الجبلية من مواد الأمرُ الذى ادى الى تراكم الاملاح فى قسمه الاوسط. وعند النظر الى هذه القيعان من الأعلى تبدو متلألئة وكأنها بحيرة، بينما يجدها المسافر على قدميه جافة خشنة السطح يوجد على جوانبها ابراج ملحية تتكسر محدثة اصواتا عندما تتمدد بفعل حرارة النهار او تنكمش بتأثير برودة الليل.

لا تستطيع النباتات الخضراء ان تنمو فى السهل الملحى، الذى يشغله الصخور العارية والحصى والملح، هذا وتبدأ الحياة النباتية فى الظهور علـــى حواف السهل، حيث تزدهر هنا وهناك بقع تنمو بهـــا شـــجيرات المـــسكويت

mesquite بأوراقها الخضراء الغضة كدليل على وفرة المياه، مما يعطى انطباعا بأن هذه النباتات تبدو وكأنها ليست فى المكان الصحيح. وفى الحقيقة فإنه يوجد مصدر جيد للمياه تتغذى منه هذه النباتات ولكنه يقع تحت سطح الارض بعمق. وتمتلك شجيرات المسكويت جذوراً يتراوح طولها بين (9 – 30 مترا) تمكنها من الوصول الى تجمعات الماء تحت السطح ، هذه التجمعات تكون على شكل عدسات من الماء العذب يغذيها ما يرشح من مياه الأمطار التى تسقط على المرتفعات المجاورة.

المسكويت هى الشجيرة الوحيدة هنا التى يمكن ان تصل جذورها الى مستوى المياه الجوفية، ولكن على شجيرات المسكويت الصغيرة ايضا ان ترسل جذورها (9 امتار) او اكثر الى اسفل عبر رمال جافة قبل ان تصل الى هذه المياه، هذا وكيف تتمكن هذه الشجيرات الصغيرة من توطيد نفسها؟ يمثل ذلك احد جوانب الغموض غير المفسرة فى الصحراء. ومعظمُ شجيرات المسكويت فى وادى الموت يبلغ عمرها مئات السنين ، بعضها طمرته الرمال المتراكمة منذ سنين، التى نقلتها الرياح على مدى زمن طويل، وهى رياح يكونُ أحياناً هبوبها قويا عبر الوادى. وفى بعض المواضع تنتأ عشرات بل مئات الاغصان من تحت احد الكثبان ، التى يمكن ان تكون جميعا فروعاً من شجيرة واحدة قديمة مدت جذورها تحت الكثيب.

تمثل شجيرة الكريسوت الدائمة الخضرة creosote نوعاً آخر من نباتات وادى الموت ذات نظام جذرى مميز، حيث تنتشر جذورها فى مساحات واسعة لتحصل على الماء من حجم كبير من التربة. يفصل بين هذه الشجيرات، فى انتشارها فوق سطح الصحراء، مسافات متماثلة الى حد

مدهش، ويبدو ذلك اكثر وضوحا عند النظر اليها من الطائرة. ويظهر أن هذه المسافات الفاصلة ترجع الى حقيقة ان جذور هذه الشجيرات تفرز مادة سـامة قادرة على قتل اى نبتة تحاول ان تنمو بالقرب منها. كما ترتبط هذه المسافات بكمية ما يسقط من امطار، فكلما قلت كمية الامطار اتسعت المسافات الفاصلة. وقد يعنى هذا أن الامطار الوفيرة تغسل التربة وتزيل ما بها من مواد سـامة وبالتالى لا تلوث هذه المواد مساحة كبيرة. من الشائع ايضا ان نجد شجيرات الكريسوت الصغيرة على طول الطرق الصحراوية فى المواقع التى سـبق أن اقتلع منها عمال بناء الطريق الشجيرات القديمة.

على مدى فترات طويلة من الجفاف تفقد شجيرات الكريسوت اوراقها ذات اللون الاخضر الزيتونى وتحتفظ فقط باوراق صغيرة ذات لون اخـضر ضارب للبنى، وكذلك هذه الاخيرة يمكن ان تجف وتتساقط لتموت الشجيرة اذا لم تسقط الامطار سريعا . يحتاج قتل جميع شجيرات الكريسوت فى منطقة ما فترة طويلة من الجفاف ، فقد كانت معاناة هذه الشجيرات شديدة فـى بعـض المناطق من صحارى جنوب كاليفورنيا خلال جفاف الخمس سنوات الماضية . ونظرا لأن حدوث جفاف قاتل يسبب ازالة هذه الشجيرات بالجملة فانه عادة لا نجد الا اصنافاً محدودة من هذه الشجيرات المسنة فى منطقـة مـا، كـل مجموعة منها تنبت بعد حدوث جفاف او فى اثناء فترة من الامطـار غيـر الاعتيادية. وهناك شجيرات تغلبت على الظروف الصحراوية القاسية، مثـل *Peucephyllum* المورقة الخضراء التى يبدو انها قادرة على العـيش دون الحاجة الى الماء، وكذلك نبات الأيلكس الصحراوى الابيض الاوراق white-leaved desert holly الذى ينمو فى تربات مالحة نسبياً.

ويتحكم فى وفرة وتوزيع النباتات عاملان اساسيان هما: عدد ما ينبت من بذور ، وطبيعة ظروف النمو التى تلاقيها البذور اثناء محاولاتها لترسيخ نفسها. أمَّا فى حالة الشجيراتُ الصحراوية فعامل التحكم الاساسى هو ظروف النمو وليس الانبات ، لذلك من الممكن ان ينمو الكثير من البذور خلال موسم ممطر ولكن القليل منها يستطيع ان يبقى حيا مـــدة كافيـــة لترســـخ نفـــسها ، ويختلف هذا الوضع كليا فى حالة النباتات الحولية فى الصحراء.

فى بعض السنوات يتغطى القاع الصحراوى لوادى الموت بفرشة من الالوان الجميلة، ففى ربيعى 1939 و 1947 تغطى الجزء غير الملحى مـــن ارض الوادى بملايين من ازهار عباد الشمس الصحراوى برائحتها العطـــرة والوانها الصفراء الذهبية مختلطة بأنواع مـــن زهـــور الـــصحراء البيـــضاء والقرنفلية . وليس من الضرورى ان يرتبط هذا الاوج فى الازهـــار بكميـــة الامطار السنوية، على سبيل المثال كانت سنة 1941 اكثر السنوات امطارا فى الوادى حيث سقط (107 مم) ولكن لم يحدث زخماً فى نمو الزهور فى تلـــك السنة ولا فى الربيع الذى تلاها. فاذا كان لوادى الموت ان يـــصل الـــى اوج إزهاره فى الربيع فمن الضرورى ان تسقط الامطار فى وقت محـــدد خـــلال نوفمبر او ديسمبر اللذين يسبقان فصل الربيع ، حيث يتبع سقوط اكثر من (25 مم) فى نوفمبر او ديسمبر نمواً مزدهراً للزهور فى فصل الربيع، وقد حـــدث ذلك عندما سقط (36 مم) من الامطار فى ديسمبر 1938 وتكرر فى نـــوفمبر 1946 ، بينما لا يكون لسقوط نفس الكمية من الامطار فى شهور اغـــسطس، سبتمبر، يناير او فبراير نفس الفاعلية.

اذا تفحصنا هذه النباتات السنوية بشىء من التفصيل ، نجد ان اكثر ما يجدر ملاحظته عنها انها نباتات عادية تماما ، مع عــدم وجــود اى مظهــر استثنائى يمكنها من التكيف والصمود امام الجفاف، كما انها لا توجد خــارج البيئات الصحراوية. يكمن السبب فى ما تتميز به بذورها مــن حــذر، ففــى السنوات الجافة تبقى البذور فى حالة سبات (dormant) ولا تبدأ فى الانبات، حتى بعد سقوط الامطار، الا اذا كانت على الاقل اكثر من (13 مــم) ومــن الافضل (25 او 50 مم) . وبما ان (25 مم) العليا من التربة، حيــث توجــد جميع البذور القابلة للانبات، تكون بنفس درجة الرطوبة اذا استقبلت (3 مم او 25 او 50 مم) من الامطار، فكيف تستطيع بذور فى حالة سبات تام ان تميز الفرق فى كمية الامطار، امر يصعب فهمه ولكن يمكن التحقق منه من خلال التجربة المعملية. اذا نشرت تربة صحراوية تحمل البذور فوق رمــال نقيــة وبللت برشاش مطرى rain sprinkler، لا تنبت هذه البذور حتى يكون قــد سقط عليها ما يعادل (25 مم) من الامطار، علاوة على ان هذه المياه يجب ان تأتى من الاعلى، حيث لا يحدث الانبات اذا ما وضعت البذور فى حاوية ينفذ فيها الماء من الاسفل.

وبالطبع يبدو هذا غير قابل للتصديق، إذ كيف يمكن ان يشكل الاتجاه الذى يأتى منه الماء فرقاً بالنسبة للبذرة، ويبدو ان الاجابة تتلخص فى ان الماء الذى يرشح الى اسفل خلال التربة يحلل موانع او مثبطات النشاط الكيمــائى للبذرة، والكثيرُ من البذور تمتلك فى غلافها كوابح تتحلل فى الماء ليبدأ النمو، فهى لا تستطيع النمو الا بعد ازالة هذه الموانع. ويمكن ان يتحقق ذلك بواسطة غسل هذه الموانع عن طريق جريان مائى بطىء تتسرب مياهه عبر التربــة وهو ما يحدث اثناء العاصفة المطرية، اما الماء الذى يرشح خلال التربة من

الاسفل فلا يقوم بنشاط الغسل. كما ان بعض البذور لا تنبت اذا كانت التربة تحتوى على بعض الاملاح، ولكن وفرة الامطار تغسل الاملاح وتسمح للبذور بان تنبت وتخرج اوراقها وبراعمها. وبعض البذور الاخرى مثل الكثير من الحشائش تؤخر انباتها لايام قليلة بعد سقوط الامطار ثم تخرج اولى وريقاتها اذا كانت التربة مازالت رطبة الأمر الذى يعنى ان ما سقط من امطار كان وافرا. وهناك بعض البذور ذات معيقات لا يمكن ازالتها الا بفعل البكتيريا، والأمر الذى يتطلب توفر الرطوبة لمدة طويلة . وكثيرٌ من البذور تواصل حالة الكمون الى ان تبلل بواسطة سلسلة من العواصف المطرية.

نجد فى الاودية الصحراوية الجافة نباتات مختلفة كليا مع متطلبات انبات مختلفة. فكثيرٌ من بذور الشجيرات التى يقتصر نموها على هذه الاودية (paloverde, ironwood and the smoke tree) تغلفها قشرة يحتاج تحطيمها الى قوة كبيرة ، فبذور paloverde يمكن تركها فى الماء سنة كاملة دون ان تظهر أية علامة إنبات، ولكن جنينها ينمو خلال يوم واحد اذا فتحت قشرتها بشكل ميكانيكى. تُفتح فى الطبيعة قشرة هذه البذور بفعل الطحن الذى تحدثه حركة الرمال والحصى، فبعد ايام قليلة من جر مياه الامطار للطين والحصى فوق قاع الوادى الجاف، تتغطى ارضه بالنباتات الصغيرة. فيصبح من السهل إظهار ان هذا الانبات كان نتيجة لفعل طحن البذور بواسطة التدفق الطينى ، فعلى سبيل المثال لا تنبت نباتات the smoke tree تحت الشجيرة الام مباشرة بل على مسافة 50 الى 100 متر فى اتجاه اسفل المجرى حيث تبدو المسافة الحرجة، فالبذور التى استقرت بالقرب من الشجرة لم تتعرض لطحن كاف بينما تلك التى جرت مسافة نحو اسفل المجرى قد تعرضت للسحق الذى عجل من إنباتها . وتنبت شجيرات smoke- tree

مكونة حوالى ثلاث ورقات ثم يتوقف نموها الخارجى (فوق الارض) حتـــى تتعمق جذورها الى عمق تتمكن عنده من تزويد النبتة بحاجتها من الرطوبـــة، وبعد ذلك تنمو الجذور بسرعة تعادل خمس مـــرات ســـرعة نمـــو البـــراعم والاغصان. ويتعرض قليل من هذه النبتات للموت بـــسبب الجفـــاف، ولكـــن حدوث الفيضان يدمر معظمها، فلا يقاوم الاندفاع المدمر للصخور والحـــصى والرمل والطين فى اتجاه اسفل المجرى الا الشجيرات الكبيرة والقديمة. يمكن إظهار قدرة شجيرة smoke-tree على الحـــصول علـــى معظـــم الرطوبـــة المتوفرة من خلال هذه التجربة: زرعت بذور شجيرة، بعد ان حطمت القشرة التى تغلفها، فى اعلى حاوية اسطوانية ارتفاعها متران ونصف، تحتوى على رمال مبللة بمحلول مذاب فيه المغذيات، ثم رشت بمياه الامطار لفترة وجيزة ، أنبتت ست بذور عاشت منها خمس نباتات، نمت على مدى ثمانية عشر شهرا فى درجات حرارة مرتفعة وبريها مرة واحدة فى منتصف تلك الفتـــرة، قـــد حققت نمواً افضل من تلك النبتات التى كانت تروى يوميا.

اجريت فى معهد كاليفورنيا للتقنية دراسة مفصلة عـــن الـــتحكم فـــى الانبات، امكن من خلالها معرفة ان فترتين مطريتين متتابعتين بكمية حـــوالى (8 مم) سوف تؤدى الى الانبات على الا تزيد المسافة بين الفترتين عـــن 48 ساعة. كما ان لأمطار الليل تأثير مختلف عن امطار النهار ، والاكثر مـــدعاة للدهشة استجابة البذور المحددة والدقيقة لدرجة الحرارة؛ فعندما عولج خلـــيط من بذور لحوليات مختلفة بمياه الامطار ووضع فى بيت زجاجى دافـــىء لـــم ينبت منها الا تلك الانواع التى تنمو صيفاً، بينما استمرت تلك التى تنمو شتاءً فى حالة كمون، وعند وضع نفس الخليط فى مكان بارد لم ينبت الا الانـــواع ذات النمو الشتوى فقط. ومن هذا يتضح ان الحوليات لا تنبـــت الا اذا كانـــت

قادرة على البقاء خلال درجات الحرارة التى تلى إنباتها وعلى أنْ يتوفر قـدر من مياه الامطار يسمح لها بأن تكمل دورة حياتها. ونظرا لان هذه النباتـات الصحراوية لا يمكنها الاعتماد على امطار تالية فى الطبيعة فإنها لا تنبت إلا اذا توفر لها قدرٌ من المطر سلفاً يضمن لها فرصة القدرة على البقاء.

إن نسبة قليلة من البذور (اقل من 1%) نبتت بعد سقوط امطار غيـر كافية، هذا الانبات يهلك فى اغلب الاحوال قبل ان يصل الى مرحلة الازهار. من ناحية اخرى فإنَّ اكثر من 50% من الانبات الذى تبرعم بعد سقوط امطار غزيرة عاش حتى ازهر ورمى البذور، وهنا تبرز حقيقة جديرة بالملاحظـة وهى رغم ان الانبات كان كثيفا لدرجة وجود عدة آلاف فى المتر المربـع إلا ان معظمها نما حتى بلغ مرحلة النضج . فرغم تزاحمها ومنافستها من اجـل الماء وعناصر الغذاء والضوء لم يقتل احدها الاخر ولكنها فقط لم تصل الـى الحجم الطبيعى فى نموها. وفى احدى الحالات وجدت 3000 نبتة ناضجة فى مكان كان قد نبت فيه حوالى 5000 بذرة . تنتمى هذه 3000 الى 10 انـواع مختلفة، وقد ظلت جميعا صغيرة الحجم غير ان لكل منها زهرة واحدة علـى الاقل وانتج كل منها على الاقل بذرة واحدة. ولا تقتصرهذه الظـاهرة علـى نباتات الصحراء، ففى البقع التى تجمع فيها عدد كبير من البذور فى حقـول الارز والقمح وقصب السكر، ونبتت جميع البذور معا وقد كانت هزيلة بعض الشيء ولكنها لم تمت. ومن الحقائق أنه فى الحدائق تنمو بعـض الاعـشاب والحشائش محتشدة حول نبتات جذابة او مرغوب فيها ، ولكن عادة يحـصل هذا فقط بسبب زراعة هذه النباتات فى غير موسمها او فى ظروف مناخيـة غير ملائمة ، وبالتالى لا تستطيع ان تتنافس مع نباتات متكيفـة تمامـا مـع ظروف النمو المحلية وهي التى عادة يطلق عليها اسم الاعشاب الضارة.

بذلك يجب ان نختم بأن كل ما قرأناه حول الصراع الذى لا رحمة فيه فى الطبيعة من اجل البقاء (البقاء للأصلح survival of the fittest) لـيس من الضرورى ان يكون حقيقيا. إذ لا يوجد بين كثير من النباتات خاصة الحولية، صراع بين النباتات حول البقاء، فعندما تنبت الحوليات فانها تكمل نموها وتحقق هدفها المتمثل فى انتاج بذرة جديدة. بمعنى اخر، وبعد انبات ناجح تكون النباتات الحولية اقل عرضة لعمليات الاختيار الطبيعى(natural selection) ويمكن ان يعلل ذلك من خلال حقيقة ان القليل فقط من انواع الحوليات الصحراوية يظهر تكيفا مع البيئة الصحراوية، هذا لا يعنى بطبيعة الحال ان النباتات تفادت التطور ولكن فعل التطور يمارس على بذور وطرق إنبات النبتة النامية بدل مميزاتها وخصائصها. لقد زود الاختيار، على أساس الأنبات، النباتات بآليات إنبات متنوعة واستثنائة ، وجعلها فى نفس الوقت تبطىء من انباتها الا اذا ضمنت توفر ظروف مناسبة لحياتها القادمة. ويكون الوضع معاكسا تماما فى حالة النباتات التى زرعها وطورها الانسان، حيث يكون الاختيار مركزا على النباتات ذات الانبات السهل والسريع ، وقد اعطانا ذلك انطباعاً خاطئاً عن مدى اهمية الانبات بالنسبة لبقاء النباتات.

بالعودة الى موضوعنا الاساسى وهو: هل يمكن لايكولوجية النباتات فى الصحراء ان تعلمنا شيئاً ما حول ايكولوجية الانسان او العلاقات الانسانية؟ ففى هذا المجال يبرز على الاقل افتراض واحد . ففى الصحراء حيث تمثل الحاجة الشديدة للماء المعاناة الرئيسية لجميع النباتات ، لا نجد منافسة قوية من اجل البقاء يتوسع فيها القوى منتشراً على حساب الضعيف، بل على العكس، يتشارك الجميع وبالتساوى فى ما يتوفر من حيز وضوء وماء وغذاء، واذا لم يكن المتوفر كافياً ليحقق الجميع نمواً أقوى واكبر، فان النمو يكون صغيراً

ومحدوداً ولكن يستمر بقاء الجميع. وتختلف هذه الصورة الواقعية عن الفكرة القائلة ان المنافسة فى الطبيعة تعتمد على القسوة المفرطة بين الانواع.

وإنَّ المنافسة او الحروب كما ابتدعها وطورها الانسان ليست شـــائعة فى الطبيعة، فمن النادر جدا ان تقوم حرب بين مجموعات من نفس النوع. نعم توجدُ الضوارى ولكنها فى الغالب تعيش على طرائد من غير نوعها. ومـــا التين الخانق الذى يقتل الاشجار الاخرى فى الغابة المدارية ليصل الى مصدر الضوْ الا حالة نادرة. حتى فى الغابات الكثيفة لا يوجد الا القليل مـــن القتـــل للأنواع الصغيرة والضعيفة ، فعمالقة الغابة من الاشجار لا تقتل ما تحتها من انواع صغيرة، وانما تحد من نموها وتحول دون المزيد من الانبات. فقد لوحظ فى غابة جبلية فى (جاوة) ان الاشجار الصغيرة التى تنمو فى ظـــل عمالقـــة الغابة لم تحقق نمواً منذ 40 سنة ولكنها ظلت حية.

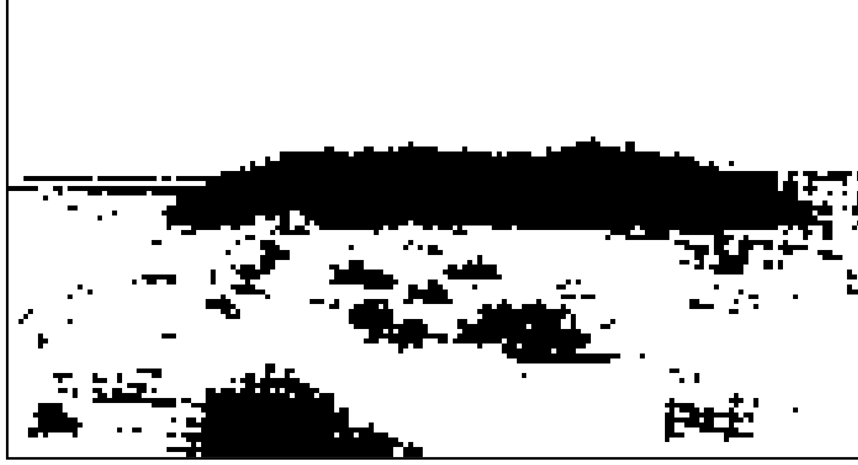
تنمو فى الغابة المدارية مئات الانواع المختلفة من الاشجار الصغيرة والكبيرة، حيث يعتبر هذا التنوع النباتى من اهم خـــصائص تلـــك الغابـــات؛ فبعض الاشجار ينمو اسرع او اطول او اعرض من انواع اخرى، ولكن هذه الخصائص فى النمو، التى نعتبرها دائما حالة من التلاءم النافع فى الـــصراع من اجل البقاء، هى فى الحقيقة لا تتحكم فى بقاء الاشجار. اذا كان الوضـــع كذلك فان انواع الاشجار فى الغابة سوف تكون قليلة، وسوف تكـــون هنـــاك نزعة تطورية لان تصبح هذه الاشجار اكثـــر طـــولاً. والحقيقـــة ان اطـــول الاشجار لا توجد فى هذه الادغال، بل فى غابات اكثر انفتاحا فى اقـــاليم ذات مناخ معتدل . ومن الجدير بالملاحظة ان وجود الاشجار المرتفعة او الضخمة ليس من الخصائص الاساسية فى الغابة المدارية. يوضح كل ذلك ان الاختيار

لا يعمل وفقا لقاعدة احتمال النمو (growth potential)، بل وفقا لقدرة النباتات على ان تنمو وتبقى فى ظل وجود قليل من الضوء.

فى اذهاننا أنَّ الكفاح من أجل البقاء يكون عادة مرتبط بان تقوم الانواع التى تكيفت بصورة جيدة بإبادة تلك الانواع التى لم تحقق تكيفاً كافياً، بوصفها نوعاً مستمراً من الحرب الباردة. والواقع لا وجود للحرب الباردة ولا للاعتداء فى الصحراء او الغابة . فمعظم النباتات غير مجهزة باليات لمقارعة غيرها ، بل على العكس تنمو كل النباتات مع بعضها وتتقاسم ما يتوفر من ضؤ وماء وعناصر غذائية. ولا تبدأ المنافسة الا عندما يصبح إمداد احد هذه العوامل حرجا، ولكن يبدو ان البقاء فى الصحارى، كما هو الحال فى الادغال، مسألة يتم الاهتمام بها من خلال التحكم فى الانبات germenation، فالمنافسة والاختيار يحدثان اثناء الانبات، وبذلك يمكن التحدث عن تحديد الانبات فى مجتمع نباتى مقارناً بتحديد النسل فى مجتمع بشرى.

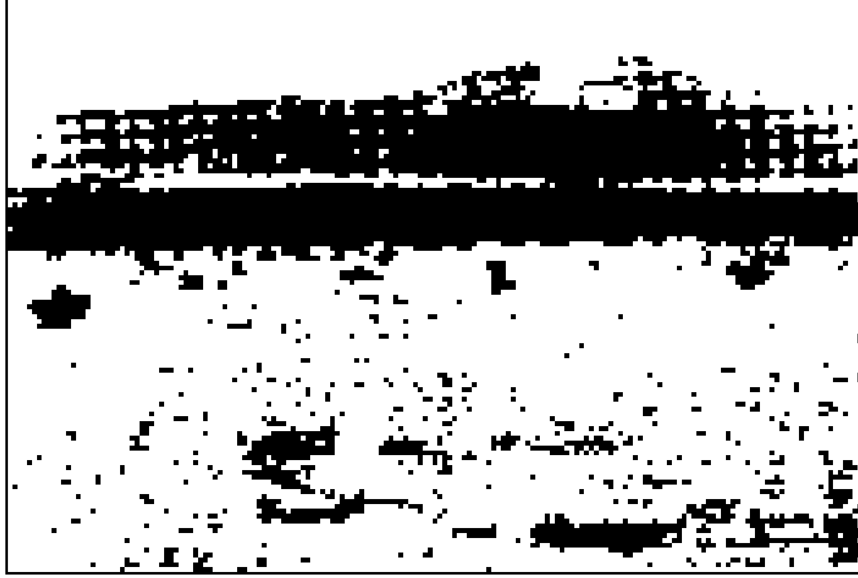
من الواضح ان التطور قد اقصى معظم انواع النباتات غير القادرة على المنافسة بنجاح. فالنباتات ذات النمو السريع او البطيىء او الطويلة جميعا متاح لها نفس الفرص حالما تنبت. لا ينشب الصراع من اجل البقاء بين الاشكال النباتية المستقرة ولكنه يميل الى إقصاء تلك الانواع الجديدة التى نبتت فى غير وقتها، او ذات القدرة المتناقصة على القيام بالتمثيل الضوئي، أو التى لا تملك مقاومة كافية ضد الصقيع. يمكن تفسير ذلك بموت اعداد نباتية قليلة فى الصحراء نتيجة الجفاف او فى الغابة نتيجة نقص الضوء او فى الاقاليم الباردة بسبب حدوث الصقيع.

وكنتيجة عامة يمكن استنتاج ان الحرب كما يشنها الانسان لا تجد لها نظيراً فى الطبيعة، ولا يوجد لها مبرراً على اسس من التطــور او الاختيــار الطبيعى ولكن اذا اردنا وصف ضبط اعداد النباتات بمفهوم بشري فان الاقرب هو مصطلح تحديد النسل.



شجرة المسكويت Mesquite (*Prosopis*) تنمو متجمعة في تكتل ضخم مما يدل على وجود مصدر للمياه لا يبعد أكثر من 30 قدماً تحت السطح، ويظهر في مقدمة الصورة شجيرات ملحية كمؤشر عل ملوحة التربة قرب الــسطح، ويدل غياب الحوليات بين الشجيرات على أن المطر لم يسقط منذ شهور.

شجيرات الكريسوت Creosote (*Larrea*) تظهر كنقاط ضــمن منتــصف الرقعة المنبسطة، وتموت شجيرات الكريسوت بعد سلسلة من السنوات الحافة، وتظهر فروعها في مقدمة الصورة، وهنا تتغطى الأرض بالنباتــات الحوليــة بسبب سقوط أمطار حديثة.



شجرة Joshua (*Yucca brevifolia*) تنمو خلال التكوينات الصخرية فــي Joshua Tree National Monument في جنوب كاليفورنيا، شرق لــوس أنجلوس. تميز هذه النباتات صحاري الاستبس المرتفعة في جنــوب غــرب الولايات المتحدة.





تفتفي الشجيرات ذات الأحشاب الصلبة Ironwood (*Olneya*) و Paloverd (*Cercidium*) أثر السيول الصحراوية حيث تصبح بذورها جاهزة للإنبـــات بعد أن تُكشط بواسطة تدفق طيني عنيف.

الهوية الليبية والوحدة الوطنية في إطار التاريخ والجغرافيا[1]

أ.د. منصور محمد البابور

قسم الجغرافيا، جامعة بنغازي (بنغازي)

مقدمة

تتضمن الورقة أفكاراً نشرتها في عدد من المقالات باللغة الإنجليزيــة[2] فــي الشهور الأولى من عام 2011، وهي أفكار مُستوحاة من ثورة فبراير المباركة التي استعاد فيها الشعب الليبي المجاهد هُويته الأصيلة التي سُلبت غدراً ردَحاً من الزمن، وبرهن من خلالها على صلابته المتأصلة التي أدهشت العالم أجمع وجعلت أناسه يرجعون إلى كتب التاريخ لمعرفة المزيد عــن هــذا الــشعب الصغير في عدده، الكبير في أفعاله. سوف أتحدث أولا عن الهُويّة والوحــدة الوطنية، ثم أنتقل لتقديم لمحة عن جغرافية ليبيا ونظامها الحضري اللذين أسّسا للهوية الوطنية ورسّخا وحدة التراب الليبي، وأختم بنظرة سريعة للــصحراء التي تشكل بدورها ركناً أساسياً من شخصية ليبيا. ينبني حِجاجي هنــا علــى فكرة أن ليبيا أمة من المدن وليست أمة من القبائل، وأن النظام الحضري الذي هو بالضرورة نظام مكاني/ اجتماعي اقتصادي متغلغل مُنذ القدم في التــراب الليبي من أقصاه إلى أقصاه، وأن هُوية ليبيا ووحدتها، النابعتين من تاريخهــا وجغرافيتها، يحركان هذا النظام ويتحركان به. طبعاً، سوف أتــرك المحــرِّك الأعظم لهُويّة ليبيا ووحدتها، ألا وهو لغة القرآن الكريم، للمتخصصين من بين الأساتذة الأفاضل في هذا الجمع الكريم.

لقد انتشر كثير من سوء الفهم والأفكار النمطية فيما يقال ويكتب حول جملة من المخاطر التي تهدد الوحدة الوطنية الليبية، بسبب طبيعة البلاد الجغرافية، وتركيبتها القبلية، وتباين أقاليمها، وكذلك بسبب عدم التوازن في توزيع السكان. بل إن دراسة نشرت مؤخراً ربطت بين ما يوصف "بثنائية التركيبة السكانية" وبعض مظاهر البيئة الطبيعية. وللأسف إن هؤلاء الذين يتجهون لتبني مثل هذه اللغة ويكررونها في الحديث عن ليبيا، إنما يتجاهلون تاريخها السياسي والاجتماعي والحضري الطويل، كما يتجاهلون أيضاً جغرافيتها الطبيعية والتاريخية والسياسية.

وَكيْلا نسمح لبعض الأفكار التي عفا عليها الزمن حول حتمية بيئية مزعومة بأن تصرف انتباهنا، من المهم الإشارة إلى أن العوامل الجغرافية ليست طبيعية فقط، بل هي اقتصادية واجتماعية وثقافية كذلك، بل وإنسانية بالدرجة الأولى، إذ لا شك أن هناك فيضاً من المعاني والدلالات يُسبغها المنتمون على المكان ما يؤكِّد شخصيته ويُبرز فرادته. ومن جهة أخرى ينبغي أن نضيف أن المسافة الجغرافية المطلقة وحدها لا تجدي كثيراً في تفسير الروابط الفعلية الموجودة بين أجزاء منطقة معينة، بل يجب الاسترشاد بدور المسافة الوظيفية الأكثر أهمية في هذه الحالة.

ما أود التأكيد عليه هو أن وحدة البلاد نجدها في جغرافيتها وفي تاريخها. فعبر آلاف السنين كانت الأرض التي أصبحت تعرف باسم ليبيا في العصور الحديثة مسرحاً لعمليات هائلة من تفاعل الحضارات وتلاقي الجماعات الأصلية من السكان، الذين أسهموا إسهاماً كبيراً في تنوعها الثقافي، الذي يبدو أكثر وضوحاً في التجمعات الحضرية. فقد شكلت هذه التجمعات

مراكز عمرانية ضمن شبكة تكونت على أساس جغرافي منذ أيام الرومـــان، عندما باتت هذه الرقعة من الأرض معترفاً بها وحدةً جغرافية مستقلة. ومن ثَمَّ فمن المسلم به أن جذور نمط ليبيا المكاني الحالي يجب أن ينظر إليها في عمق تاريخها العمراني، وليس من خلال بعــض الأفكـــار المـــسبقة، أو الحجـــج الافتراضية.

إن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ماذا حدث للهوية الوطنية للشعب الليبي زمن الاحتلال الإيطالي الغاشم وفترة حكم الاستبداد التي أطاحت بهـــا ثورة الشعب المجيدة؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تتطلب منـــا فهمـــاً عميقـــاً لتطلعات الشعب الليبي خلال هاتين الفترتين. فإذا أخذنا في الاعتبار أن الفترة الأولى كانت تتسم بسيادة نمط الاقتصاد الريفي الرعوي، وأن الفترة الثانية قد اتسمت بسيادة غالبة للنمط الحضري، فإننا نلاحظ أن السمات الجوهرية لكلتـــا الفترتين تمثلت في مسألة البحث عن هوية ضائعة والأمل في مستقبل أفضل.

إن التاريخ الشفهي والمكتوب لنضال الشعب الليبي ينبئنا بأن الحفـــاظ على الوحدة الوطنية كان أمراً جوهرياً من أجل الحفاظ على الهوية الوطنيـــة. وتعد الملحمة الشعرية الشهيرة: "ما بي مرض غير حبس العقيلـــة" نموذجـــاً كلاسيكياً لوصف المآسي والفظائع التي قاساها الليبيون إبان نظالهم البطـــولي ضد الاحتلال الإيطالي، ومع ذلك فهي تعبر عن معاني اللهفة للديار والهُويـــة المسلوبة والأمل في استعادتهما. وكي نفهم ملامح التغيير التي تـــوحي بهـــا الثورة الحالية، على صعيد تبلور الهوية وتطورهـــا، علينـــا أن نعـــود إلـــى الاستمرارية التاريخية من خلال مرحلة ما قبل الاستقلال والمرحلة الدستورية.

ويفترض أن معنى من معاني الاستمرارية التاريخية مع هـاتين المـرحلتين الحاسمتين يعطينا ما نحسبه معنى للهوية الوطنية.

الهُوية والوحدة الوطنية

بادئ ذي بدء، إن الهوية الليبية تنبع أساساً من شعور قوي بالوحدة الوطنيـة؛ وحدة حقيقية، وليست متخيلة. إن جغرافية ليبيا البشرية تعطينا الأسس الحقيقية للوحدة الوطنية، وهي تستمد قوتها من تصورين للمكان ينتج أحـدهما عـن الآخر، مثال ذلك نمط الاقتصاد الزراعي الرعوي السابق، والنظـام الحـالي للمدن المعتمد بعضها على بعض وظيفياً. ففي النظام القـديم كـان الرعـاة الزراعيون يتنقلون بحرية على الأرض سعياً وراء الكلأ والماء، ولم يكونـوا يعترفون بأية حدود تفصل بين أجزاء وطنهم. وفي النظام الحالي ولدت المدن والقرى من مختلف الأحجام من خلال نظام تراتبي متأصّل للأماكن المركزية، التي ثبت أنها تلعب دوراً أساسياً في مسألة الهوية وقامت كـل منهـا بـدور البُوتقة التي ينصهر فيها السكان القادمون من كل مكان في ليبيا.

في الحقيقة لقد وجد الليبيون الفرصة للتعبير عن فهمهم المتميز لهـذه الوحدة في ثلاث مراحل حاسمة خلال مائةِ السنة الأخيرة من تاريخهم، بـدءاً من 1911 حتى 2011. وقد تجسد إدراكهم لمصيرهم المشترك بشكل واضح خلال ثلاثة عقود من النضال الموحد، سياسياً وعسكرياً، لتخليص بلادهم من حكم المحتل. لقد جاء المقاتلون من كل مكان: من المناطق الريفية والحضرية على طول ساحل المتوسط، وكذلك من قبائل البادية وسـكان الواحـات فـي مناطق الداخل. فقد مثلت هذه القبائل مصادر حيوية لتزويد قـضية التحريـر بالرجال المقاتلين.

ثم مثل إعلان الاستقلال وإنشاء الملكية الدستورية سنة 1951 بداية مرحلة جديدة من التطور السياسي والاقتصادي. والأهم من ذلك أن الوحدة الوطنية قد ترسخت وتم المحافظة عليها من خلال درجة عالية من الوعي السياسي بالمصير المشترك لدى المواطنين جميعاً. وانطلاقاً من وعي الليبيين بهويتهم كوحدة سياسية مستقلة، فقد توجوا تطورهم السياسي، في منتصف الستينيات، باستبدال نظام الحكم الفيدرالي (الذي كان يشمل الولايات الثلاث السابقة: طرابلس، برقة، فزان) بنظام دولة الوحدة.

أما الثورة الحالية فإنها تتحدث عن نفسها بكل وضوح. لقد شرع الليبيون في البحث من جديد عن الحرية واستعادة الهوية المفقودة والديمقراطية. فعلى الفور، منذ اللحظات الأولى لتفجر ثورة فبراير المجيدة، طغى على الجميع شوق عارم للراية الدستورية، رمز الاستقلال الوطني، فأخذت هذه الراية ترفرف في كل مكان، اعتزازاً، بلا أي شك، بتلك المرحلة التاريخية وبمنجزات الأجيال الماضية. ولا شك أن بروز العلم وانتشاره بشكل عجيب في كل مكان، بأعداد هائلة وبكل الأحجام، يعد مؤشراً لا تخطئه العين لإحساسهم بوحدة ليبيا وهوية سكانها.

إن المشهد الحضري التقليدي لمدينة بنغازي، على سبيل المثال، هو نتاج لمعنى من معانٍ تاريخةٍ، ومن ثَمَّ فإنه ينتهي إلى معنى من معاني الوحدة. إنه يحمل شهادات على مراحل من الازدهار، وأوقات من القنوط والنضال. وهكذا فإن الفقدان المادي لعدد من أهم آثاره وملامحه الحضرية خلال حكم الاستبداد، مثل هدم ضريح شيخ الشهداء عمر المختار ونقل رفاته، وهدم سوق الظلام، وتدمير عدد آخر من المكونات المعمارية للمدينة، لم يؤثر على

الإطلاق في معنى الهوية. وعلى كل حال هذا الفقدان لن يكون نهائياً، فكل هذه المعالم تبقى راسخة بعمق في ذاكرة الشعب الجمعية، وسوف يساهم استعادتها في دعم الهوية وترسيخ المكان.

لقد أشرت إلى أمثلة من مدينة بنغازي، ولكن الأمر نفسه ينطبق على غيرها من الأماكن، فالأمل القوي في استعادة الهوية الوطنية قد تجسد في مناطق حضرية أخرى على طول امتداد التراب الليبي، تختلف في أحجامها، من طرابلس، العاصمة الوطنية، حتى بلدة الجغبوب الصغيرة في عمق الصحراء، قرب الحدود المصرية. فهذه الواحة الصغيرة قد عانت بقسوة جراء الهدم المتعمد لمؤسستها التعليمية الشهيرة المعروفة؛ وجدير بالذكر أن الجغبوب كانت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر تنافس الأزهر الشريف في مجال التعليم الديني.

ودون الحاجة إلى الخوض في تفاصيل التطور التاريخي للمدن الأولى، يكفي القول إن اللبنات الأولى للإطار الحضري الحالي تمتد جذورها عميقاً في تاريخ ليبيا. ومن الأمثلة على تجمعات حضرية بنيت فوق مواضع مدن تعود للتاريخ القديم والوسيط أو بجوارها نذكر: طرابلس، بنغازي، شحات، صبراته، زوارة، مصراته، زليتن، الخمس، درنة، طبرق، المرج، سوسة، طلميثة، توكرة، دريانة، وغيرها من المدن المنتشرة في جبل نفوسة ومنخفضات الصحراء الجنوبية مثل زويلة، جرمة، مرزق، غدامس وغات. بعض المدن الأخرى، مثل سبها والزاوية والبيضاء فقد نمت كمراكز إقليمية مهمة في العصور الحديثة، بل إن البيضاء قد أصبحت في فترة ليست بعيدة عاصمة للبلاد، في حين أن بعض المراكز الحضرية الأخرى قد ظهرت كمنتج

طبيعي لأنشطة استثمار موارد النفط، مثل موانئ تصدير النفط: مرسى البريقة وراس لانوف والسدرة.

إن المتمعن في المشهد الحضري في ليبيا، ولو لـم يكـن ذا معرفـة واسعة بجغرافية ليبيا، سوف يلاحظ أن ذلك الانتشار الواسع للمواقـع التـي ذكرتها آنفاً يشير تقريباً إلى كل المدن والقرى المهمة، الكبيرة والصغيرة، التي تتكون منها ليبيا الحالية. وثمة استمرارية ملفتة للنظر توجـد بـين مكونـات الأنظمة الحضرية القديمة في المدن الخمس في جهة الشرق، والمدن الـثلاث في الغرب، ونظيراتها الحديثة التي نشأت في المواقع ذاتها. بالطبع واجهـت المراكز الحضرية القديمة جملة من الظروف غيـر الملائمـة مـن الجمـود والانهيار، ومع ذلك فإن الإطار العام للمشهد الحضري الذي ورثته ليبيا مـن تاريخها الماضي ظل في مجمله ثابتاً، وحافظ على نظامه المكاني الأصـلي. ولعل من أبرز علامات هذه الاستمرارية الإبقاء على الأسماء الأصلية لكثيـر من المدن والأقاليم معرّبة مُنذ الفتح الإسلامي. وإذا ما نظر إلى هذه المراكـز وظهيراتها باعتبارها نظاما مكانياً، فإنها تمثل مكونـات تراتبيـة حـضرية مرتبطة ببعضها البعض وظيفياً، كذا لعلها كانت كذلك في الماضي البعيد.

كيف إذن أسّست الجغرافيا للهوية والوحدة الوطنية وحفظتها؟

إن ليبيا في مجملها عبارة عن كتلة صحراوية هائلة، تمتد عبر شمال أفريقيا. وهي بمساحتها التي تعادل مساحة مصر وتونس مجتمعتين مرة ونصف، وإذا ما أخذنا في الاعتبار انقسام السودان أخيراً إلى دولتين، أصبحت تعـد ثالـث أكبر دول أفريقيا مساحة، ولها أطول ساحل على البحر المتوسط فـي شـمال

أفريقيا، ومع ذلك فسكانها لا يتجاوزون نصف سكان تونس، وما يعادل 15/1 من سكان مصر.

إنَّ موقع ليبيا وسط شمال إفريقيا على امتداد ساحل البحر المتوسط أعطاها ميزة استراتيجية كبيرة مكنتها، قديماً وحديثاً من القيام بدور الرابط الجغرافي الهام بين أوروبا وإفريقيا جنوب الصحراء الكبرى؛ كما مكّنها هذا الموقع الإستراتيجي من تكوين علاقات ثقافية وتجارية وسياسية على درجة كبيرة من الأهمية مع جاراتها، مصر والسودان وتونس والجزائر والنيجر وتشاد الواقعة على حدودها مباشرة.

يتوزع السكان في ليبيا على مراكز حضرية عديدة ومتناثرة، تحكمت في نشأتها ندرة الموارد المائية، التي تنحصر في المناطق الساحلية القريبة من الساحل وبعض المنخفضات الصحراوية القابلة للحياة. إنها أرض ممتدة، تتكون من سهول ساحلية وبعض الهضاب، ومن سهول داخلية تمتد بينها شبكة من الوديان الجافة، إلى جانب المنخفضات الصحراوية الشمالية والجنوبية التي تظهر فيها هنا وهناك بعض الواحات الآهلة بالسكان.

والعجيب أن ليبيا ليست متجانسة ثقافياً فقط، بل ينطبق نوع من التجانس الطبيعي على أجزائها المعمورة الرئيسة أيضاً. يمكننا الحديث عن الهضبتين المتناظرتين، الجبل الأخضر وجبل نفوسة، كما يمكننا الحديث عن السهلين المتماثلين سهل الجفارة وسهل بنغازي. هذه الإقاليم الأربعة شبه الجافة (باستثناء المصاطب والجروف العليا للجبل الأخضر التي تصنف شبه رطبة) تشكل أقل من 5% من مساحة الأراضي الليبية ولكنها تأوي ما يزيد على 90% من السكان.

في الشمال الشرقي هناك الجبل الأخضر، الذي أصفه "بالنتوء البرقاوي" بسبب شكله البارز الذي يحدد معالم سهل بنغازي ويحتضنه على نحو مناسب، وهو يتميّز بوفرة نسبية من الأمطار التي تجود بها الرياح الشمالية والشمالية الغربية في فصل الشتاء لتحفظ خُضرة طبيعية دائمة تغطي مصاطبه وجروفه. ومن ورائه وشرقه حتى الحدود مع مصر تمتد هضبة البطنان والدفنة التي تتوزع مدنها وبلداتها بصورة طولية منتظمة في تناغم مع مورفولوجية الهضبة وساحل البحر شمالا والصحراء جنوباً. في حين نجد في الغرب جبل نفوسة الذي يحدد بدوره سهل الجفارة ويحتضنه، موفراً بذلك مانعاً طبيعاً يحفظ طراوة السهل من مؤثرات الصحراء القاسية.

تبدأ الكتلة الحجرية لجبل نفوسة من نقطة بالقرب من الخمس على ساحل المتوسط، حوالي مِئة كيلومتر إلى الشرق من طرابلس، وتمتد في اتجاه الجنوب الغربي حتى تنتهي في الأراضي التونسية. وتضم المستوطنات في جبل نفوسة عدة مدن، باتت أسماؤها أكثر ألفة منذ اندلاع الثورة، مثل يفرن ونالوت وجادو والزنتان والرجبان وكاباو والقواليش وككلة والقلعة والرحيبات والأصابعة وتيجي ونقطة الحدود وازن. وقد كانت بعض هذه المدن والقرى، المحتمية بمواقعها في الجبل من أوائل المناطق التي التحمت بالثورة.

وكلتا البيئتين الطبيعيتين، السهلين والجبلين، يحتضنان أربعة أخماس مُدن ليبيا وسكانها، والخُمس الآخر موزّع على المناطق الساحلية الوسطى والمناطق الجنوبية. ومن هنا فإن ليبيا تشبه مصر، التي يتركز قُرابة 95% من سكانها على امتداد الشريط الضيق لوادي النيل، وهِبته الأبدية (الدلتا). ومع ذلك، فعلى العكس من وادي النيل الطويل المتواصل والدلتا ذات الشكل

المتراص، فإن هضبتي ليبيا العامرتين وسهليها الكبيرين شبه المثلثين بعيـــدان أحدهما عن الآخر.

إن المنطقتين الجبليتين اللتين تبرزان في شمال ليبيا، ويتـــصل بهمـــا السهلان الساحليان، لهما تقريباً نفس الامتداد والارتفـــاع، ولكِلْتيْهمـــا أهميـــة استراتيجية، فقد ثبت أن مرتفعات الجبل الأخضر كانت لها أهمية حيوية خلال العقدين من الزمن ما بين 1911–1931، اللذين شهِدا النضال الليبي ضد حكم المحتل الإيطالي في شرق البلاد تزامناً مع الكفاح الموحّد الذي كان يقوم بـــه سكان وسط ليبيا وغربها وجنوبها. كما أن قوات الحلفاء استفادت فائدة كبيرة من الطبيعة الجغرافية للجبل الأخضر وامتداده في هضبة البطنان، في هزيمة قوات المحور في شمال أفريقيا خلال الحرب العالمية الثانية.

وقد شاهدنا أراضي جبل نفوسة الوعرة تلعب دوراً مـــشابهاً لا يقـــل بطولة في الحرب الأخيرة التي أُجبر الليبيون على خوضها من أجل اســـتقلال ليبيا الثاني من النظام القمعي المنهار. فقد وفّر هذا الجبل الأشم مَنْفَذاً ورقابـــة على خطوط الإمدادات في الجنوب، وخاصة نقطة الحدود في غـــدامس مـــع الجزائر وتونس من جهة، ومن جهة أخرى نقطة الحدود الأخرى مع الجزائر عبر غات في إقليم فزّان.

وعلى الرغم من أن مسافة ألف وخمـــسمائة كليـــومتر تفـــصل بـــين الهضبتين والسهلين من منتصفهما، إلا أنهما لم يكونا أكثر ترابطـــاً سياســـياً وعسكرياً كما كانا خلال ثورة السابع عشر من فبراير المجيدة المجيدة، فقـــد ظل التواصل الاجتماعي والسياسي، وكذلك الإمدادات العـــسكرية والعمليـــات

على جبهات القتال، تسير بطريقة سلسة بين مُدنِ جانبي البلاد وبلْداتها على الرغم من وجود قوات القذافي بينهما.

بنية النظام الحضري

سوف أتحدث قليلا عن النظام الحضري بوصفه مؤشراً قوياً على مرونة الشعب الليبي حيث جسّد بكل وضوح فكرة الوحدة الوطنية ومثّل أهم دعائمها. لقد كان من أهم الحقائق حول تحول المجتمع الليبي منذ الاستقلال نحو النمط الحضري؛ إذ توجه الليبيون بشكل كثيف نحو المدن، دون النظر إلى أصولهم إن كانت حضرية أو ريفية. وكان هذا يرجع أساساً إلى التجانس الاقتصادي الاجتماعي/الثقافي الملفت للنظر الذي يربط بينهم. فلم يكن ثمة انقسام بين المدينة والريف، ولم تكن المدن على الإطلاق مناطق منغلقة على نفسها، أي enclaves كما يُشار إلى هذه الحالة بالمصطلح الإنجليزي. فالواقع أن المدن والقرى ظلت مترابطة فيما بينها اجتماعياً وثقافياً ووظيفياً، ومن ثم فقد كانت تمسك بمفتاح الهوية الوطنية والوحدة.

النتيجة أن ليبيا تعد البلد الأكثر تحضراً في أفريقيا، وربما من أكثر الدول تحضراً في العالم كله. إنّها، بحق، أمّة من المدن. فعبر تاريخه الحديث كله، بدءاً من نهاية الحرب العالمية الثانية، مروراً بمرحلة الاستقلال التي تلتها على امتداد النصف الثاني من القرن العشرين، أخذ المجتمع الليبي يتشكل بثبات وخطى حثيثة في نمط حضري وظيفي، ربما يكون قد بلغ مستوى النضج، وإن كان بمعايير الدول النامية، بحلول القرن الواحد والعشرين، إذ أصبحت الغالبية العظمى من السكان يقطنون في تجمعات حضرية. وعلى الرغم من رقعة البلاد الشاسعة، وانخفاض الكثافة السكانية، فإن مدن البلاد

وقراها كانت دائماً متصلة فيما بينها اجتماعياً وثقافياً ووظيفياً، لا باعتبارهـا وسيلة اقتصادية معاشية فحسب، ولكن من حيث إنها مصدر هويـة لمجتمـع متحرك، يتنقل بحرية وباستمرار من مكان إلى آخر، بحثاً عن فرصة العمـل والحياة المدنية. وبالطبع قامت المراكز الحضرية التقليدية: طرابلس وبنغازي ومصراته ودرنه بدور المحور للأنشطة الاقتصادية، التي نشأت بفعل صناعة النفط. هذه المدن وغيرها المنتشرة على امتداد مساحة البلاد الشاسعة، مثلـت أيضاً بُوتقة انصهر فيها السكان الذين كانوا يعيشون حياة البادية والمهـاجرين إليها من التجمعات الصغيرة والزراعية.

والحقيقة أننا شاهدنا في الأيام العظيمة الأولى لثورة الشعب كيـف أن الوحدة الوطنية قد برزت بوضوح من خلال مظاهر التكافل والاتحـاد التـي يحس بها الجميع في كل المدن. فعلى سبيل المثال، عندما انطلقت شرارة ثورة فبراير في بنغازي، ثاني مدن البلاد، ترددت أصداؤها على الفور فـي بلـدة الزنتان الصغيرة في أقصى منطقة جبل نفوسة، وسرعان ما انعكست خـلال يومين على سائر التجمعات السكانية، بصرف النظر عن أحجامها ومواقعهـا. بل إن المدن، حتى وهي تعاني من الحصار الخانق المفروض عليها، أثبتـت أنها متصلة بعضها ببعض، وأن بعضها يعتمد على بعض، وأنها قادرة علـى توفير الدعم الحيوي فيما بينها. ومن ثَمَّ فقد كان خط الدفاع عن مدينة بنغازي، القلعة الحصينة لثورة فبراير، لا ينتهي عند البوابة الغربية لإجـدابياً البطلـة، ولكنه يمتد حتى مصراته المنيعة، والزنتان والزاوية الباسلتين وغيرها كثيـر من المدن والقرى في معظم المناطق الغربية من البلاد.

إن هذا التوزيع التراتبي لمكونات الإطار الحضري على اتساع الإقليم المعمور هو أيضاً نتاج الجغرافيا، كما هو نتاج التاريخ. ذلك أن الخصائص الطبيعية لليبيا تتميز غالباً بعدم وجود أرض وعرة، على الرغم من أنه توجد في الشريط الساحلي شرقاً وغرباً أراضي مرتفعة قليلاً نسبياً[(3)] تتوازى مع خط الساحل، وهذا يصب في صالح التواصل بين مكونات النظام الحضري. إضافة إلى ذلك فإن عدم وجود أجزاء متميزة ثقافياً داخل حدودها، وعدم وجود أية مناطق ليبية خارج الحدود، وأن المدن وما يرتبط بها من أرياف ليست ذات طبيعة متنافرة، يدعم فكرة أن المدن والقرى ومجالاتها الحيوية كانت دائماً مترابطة فيما بينها وظيفياً واجتماعياً، وكانت داعمة لبعضها البعض.

لقد أكدت على فكرة النظام الحضري، واعتمدت عليها لتأكيد الوحدة المكانية للتراب الليبي، وهي وحدة وجدت في الأزمنة الماضية، وبقيت، ظاهراً وباطناً، حتى العصور الحديثة. ومن هنا فإن ذلك الانفصام بين الشرق والغرب الذي ربما وجد خلال فترة التنافس الإغريقي والفينيقي، تم في الواقع إنهاؤه بواسطة الرومان الذين حكموا أرضاً موحدة، بل غامروا أيضاً بالتوغل إلى مناطق الدواخل وسهّلوا ارتباطها بالمناطق الساحلية. وبدءاً من منتصف القرن السابع الميلادي انتشر نموذج المدينة الإسلامية على طَوَال الأرض الليبية، التي شيدت فوق المراكز الحضرية القديمة، أو بنيت بجوارها. بعد ذلك التاريخ بحوالي ألف عام حكم العثمانيون (1551-1911) أرضاً موحدة، وعندما احتل الإيطاليون ليبيا سنة 1911، استعمروا هم أيضاً أرضاً موحدة، وتبنوا تسميتها الجيوسياسية. ولا شك أن ليبيا الحديثة كانت تمتلك المعايير اللازمة للحفاظ عليها موحدة.

ولعلنا لا نحتاج إلى التذكير بأن هذه اللمحة عن النظام الحضري في ليبيا لم يكن يراد بها أن تكون شاملة كاملة، وإنما كان القصد من ورائها إثارة المزيد من النقاش والتأمل في صلب النظام الجغرافي الذي يؤثر في التفاعل البشري في كل مكان وزمان. وكي نفهم جيداً الإطار الحضري لليبيا في الوقت الحاضر، ومن ثَمَّ وحدتها الترابية، فإن علينا أن ندرس بعمق التجربة الحضرية الماضية، وأن ننظر إليها باعتبار أنه من الممكن أن تمثل الأساس لأية تنمية مكانية قادمة.

الصحراء

الصحراء، بمنخفضاتها الواسعة، تشكّل مناطق جذبٍ لسكانها وروادها من سائحين وباحثين ورحّالة وغيرهم ممن يعملون فيها، بما توفِّره من موارد بشرية وظواهر طبيعية في غاية التباين والاختلاف. أودية الصحراء العامرة احتضنت محطات القوافل القديمة ووفرت حطاياها الأمن والأمان لقاطنيها وزوارها وتجار القوافل الصحراوية في الماضي، رابطة بمواقعها الاستراتيجية بين الحمادة والرمال مدن الساحل الليبي بأواسط افريقيا. والآن نراها تقوم بدور مماثل لا يقل أهمية عن سابقه، وهي تتدرج في عُقد من الأماكن المركزية المتفاعلة ضمن المنظومة الحضرية الوطنية.

جانب آخر هام من جوانب البيئة الصحراوية يتمثل في حياة مُدن وواحات الصحراء العامرة. هذه المرافئ الرائعة بمائها العذب الغزير وغابات نخيلها وانتاجها من التمور الطيبة وطِراز بنائها التقليدي الذي يذكِّر المرء بالنمط المندثر، أو وشيك الاندثار، للمدينة الإسلامية المتناغِمة مع بيئتها، كل

ذلك وغيره من كرم خِصال أهلها وعَفْويتهم يجعل واحاتنا محاطّ أمان للمسافر والرحّالة الذي تستهويه الصحراء بسحرها ودفئها.

الصحراء مُتحفٌ كبيرٌ مفتوحٌ تجب المحافظة عليه واستثماره بشكل مُستدام، كما يجب أن يكون هذا المُتحف المفتوح منطلقاً للدراسة والمعرفة بما يوفره من مجال خَصِب لشتى فروع العلم، ولمُحبي الإطلاع والتعرّف على هذا النوع من البيئات الفريدة وصِفاتها الجيولوجية والطبوغرافية وأنماط التعرية في صخورها ومنخفضاتها وجبالها ووديانها وخصائص ما يعيش فيها من نبات وحيوان. إنه أيضاً جزء هام من العالم المُختَبَر، عالم الإدراك الحسي الذي يجد فيه الشاعِر مبعثاً لصور جميلة يقدح بها خياله الشِعري، كما يجد فيه الباحث الفينومينولوجي (الظاهِراتي) مادته الأولية التي يرى من خِلالها تجليّات الفِعل الإنساني وإحداثه "للمكان" في صورته الأصيلة.

خاتمة

إن على الليبيين أن يعلنوا الآن عن رؤية جديدة. هذه الرؤية يجب أن تتصل بتجربتنا الديمقراطية الماضية، التي خضناها كأمة في فجر الاستقلال، وكانت تتعلق بها كل آمالنا. وعلى كل حال فإن مجرد التعلق العاطفي بالهوية الوطنية لن يكون كافياً. فإن الرؤية الجديدة يمكن أن تستلهم أيضاً من إحساس مرهف بالمكان الذي اكتسبته الأمة من تجربتها الإنسانية، ولا سيما تلك الصورة التي افتقدت ثم وجدت من جديد لمدننا. فهذه المدن والقرى، وهي تستعيد هوياتها، تحاول أن تعيد موضعة نفسها، باحثة عن صور سابقة، في محاولتها بناء صور أخرى في أنماط جديدة.

إن ما حدث خلال أربعة العقود الماضية لا يعكس القيم ولا الشعور الوطني لدى الشعب الليبي. ففي الحقيقة إن ما يحدث الآن يؤكد لنا أن روح الأمة لم تتكسر على الإطلاق، على الرغم من الانحطاط الذي تعرضت له خلال أربعة عقود من الحكم الاستبدادي، الذي كان يهدف إلى تحطيم كرامتنا والانحدار بنا إلى حالة من الفوضى. فهذه العقود البائسة لم تفلح في اقتلاع إحساسنا بالهوية الأصيلة. كما أن حركة التغيير في ليبيا لم يعد ممكنا أن تعود إلى الخلف، فالليبيون الأحرار فخورون بوطنهم وقد نجحوا في استعادة إحساسهم بوحدة المصير، وما أنجزوه في حرب التحرير الثانية واستعادة الوطن والهُوية الأصيلة يعكس إدراكهم لطبيعة بلادهم الجغرافية ومهارة في استثمارها على النحو الأكمل(4).

الهوام

i ـ محاضرة عامة ألقيت بمدرّج سناء محيدلي بكلية الطب، جامعة بنغازي، ضمن ندوة نظمتها الجمعية الليبية لأصدقاء اللغة العربية عن "ليبيا ... اللغة والهوية والوحدة". بنغازي: 22 أبريل 2012.

ii ـ قام الأستاذ الفاضل الدكتور يونس فنوش بنقل بِضع من تلك المقالات إلى لغتنا العربية الخلاّقة ما جعل الترجمة تتفوق على الأصل، فله جزيل شكري مجدداً.

iii ـ يقل ارتفاع أعلى أجزاء الجبل الأخضر وجبل نفوسة عن 900 متر فوق مستوى سطح البحر.

iiii ـ مقالات الكاتب الأصلية باللغة الإنجليزية مرتبة حسب تاريخ صدورها:

Mansour Elbabour (4/5/ 2011), Libya: a nation of cities .

http://english.libya.tv/2011/05/04/a-nation-of-cities-united/

______________ (14/5/2011), How geography and history enhanced unity in Libya

http://english.libya.tv/2011/05/14/how-did-geography-and-history-enhance-unity-in-libya-2/

______________ (01/06/2011), Restoration of a lost identity .

http://english.libya.tv/2011/06/01/restoration-of-a-lost-identity/

______________ (26/07/2011), Plain and Plateau Country .

http://english.libya.tv/2011/07/26/plain-and-plateau-country/

وجميعها منشورة على الموقع الالكتروني التالي: http://works.bepress.com/mansour_elbabour/